بدر الدين الحسني

(١٢٦٧-١٣٥٤هـ=١٨٥٠-١٩٣٥م)

شيخ شيوخ الشام

obeikandl.com

عالم الدين الحق هو الذي يكون في الطليعة دائما، إذا دعا الناس إلى فعل الخير كان هو من السابقين إليه، وإذا نهي عن شيء، كان أول المنتهين عن إتيانه. وإذا ما دعا داعي الجهاد، كان في مقدمة الساعين إلى الشهادة، أو النصر. وهكذا كان عالم الشام «الشيخ بدرالدين الحسني»، الذي لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية، بل إنه قام بدور رئيسى في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي.

هو «محمد بن يوسف بن عبدالرحمن» بن عبدالغني المراكشي السبتى «نسبة إلى مدينة سبتة في المغرب». ينتهي نسبه إلى الولي الشيخ عبدالعزيز التباع، الذي ينتهي نسبه بدوره إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. ولد في دمشق سنة ١٢٦٧هـ، الموافق ١٨٥٠م لأبوين فاضلين تقيين، يُشهد لهما بالصلاح، فوالدته السيدة عائشة الكزبري بنت المرحوم إبراهيم الكزبري من أعرق أسر دمشق علما وفضلا وحسبا ونسبا. وقد عرفت هذه الأسرة برواية الحديث.

أما والده فهو السيد يوسف، ويكفيه فخرا أنه هو الذي استخلص دار الحديث الأشرفية بدمشق من يد بائع خمر حولها إلى مستودع للخمور، فعندما قدم هذا الرجل إلى دمشق، وسمع بذلك، حتى هب يستنصر أهل الشام لإزالة هذا المنكر، فرفع الأمر إلى الوالي، الذي لم يفعل شيئا حوفا من إغضاب القنصلية الفرنسية التي كان يتمتع بحمايتها تاجر الخمور. فما كان منه إلا أن ذهب إلى الأستانة، حيث حصل على فرمان سلطاني بإنقاذ دار الحديث الأشرفية من يد ذاك الرومي. ولكن الوالي لم ينفذ الأمر السلطاني، فسعى السيد يوسف لدى «الأمير عبدالقادر الجزائري» -الذي كان يقيم في ذاك الوقت بدمشق- وأقنعه بشراء الدار من بائع الخمر. وتولى «السيد يوسف» إصلاحها وإدارة شؤونها.

همة عظيمة:

نشأ «الشيخ محمد بدرالدين» في رعاية هذا الوالد العلامة «الشيخ يوسف»، وحفظ القرآن بمعونته وإرشاده، وقرأ عليه مبادئ العلوم حفظا وفهما.

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره، توفي والده، فجلس في غرفة والده بدار الحديث، وأخذ يدرس الكتب التي تركها له والده بهمة عظيمة، حتى أدهش علماء عصره بعقله، فقد حفظ اثنى عشر ألف بيت من الشعر في فنون مختلفة، وهو لم يتعد الثانية عشرة من عمره، ولم يكد يكمل الثانية عشرة إلا وقد نبغ نبوغا باهرا استلفت أنظار مشايخه، فأجازوه، وأذنوا له بالتدريس.

أقبل الشيخ الشاب على تحصيل العلم بهمة صادقة، وعزيمة صحيحة، لا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار. وكان حصاد خلوته هذه أنه ألف نحوا من أربعين مؤلفا قبل أن يكمل سن العشرين، معظمها كان شروح وتعليقات على الكتب والمتون المعتمدة. وحفظ صحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة، وكان يحفظ أسماء رجال الحديث، وما قيل فيهم من جرح وتعديل.

ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره، حتى تصدر للإقراء والتدريس، فألف الكتب الكثيرة وأقرأ الكتب الكبيرة. وليس هذا بمستغرب على شاب أنكب على المطالعة وأولع بها كثيرا منذ كان صغيرا جدا. وساعده على ذلك تجنبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور. فكان لا يتكلم إلا بمالابدمنه من الكلام.

وأشاد به كل علماء عصره، قال العلامة الشيخ بهجة البيطار: كان أعلم محدثي الشام، علم وحفظ ودراية وكتب ودراسة، أما الحديث فلا نعلم له نظيرا في حفظه. ولا في ضبط رجاله ومعرفة سنده. وحسبه روايته في الجامع الأموي تحت قبة النسر، من بعد فريضة الجمعة إلى أذان العصر، وقد دأب على ذلك نحو ثلاثة أرباع قرن. وأما دار الحديث الأشرفية، فقد كان يجلس فيها للدرس صباح كل جمعة وثلاثاء، ولم يكن يقرأ للطلاب فيها من كتب العلوم الشرعية والعربية والعقلية إلا مطولاتها وصعابها، فقد رأى أن هذه الكتب ترفع الهمم وتقوي الملكات في الفهم، وتُعين على دفع الإشكالات والشبهات.

كان يقضي يومه في حركة دائبة وعمل مستمر، لا يكاد يستريح إلا سويعات من

الليل ينام فيها، ثم يقوم قبل الفجر للعبادة والطاعة والعمل المستمر.

عمل رائد:

يشرح أحد تلاميذه، نمط عمله اليومي، يقول «الشيخ محمود ياسين»: كان «الشيخ بدرالدين» يُصلى الصبح في الجامع الأموي ثم بعد أن يقرأ بعض أوراده يذهب إلى غرفته في دار الحديث، وحوله جماعة ممن ولعوا به، فإذا وصل إلى باب المدرسة أقبل عليهم بوجهه وطلب منهم الدعاء، ثم سلم ودخل غرفته، وهناك يتم بقية أوراده، ثم يُصلي صلاة الضحى التي لم يتركها حتى في سفره إلى الحجاز ولا يوم وفاته.

وبعد أن يقضي إغفاءة، يبتدئ الدروس التي تمتد إلى ما بعد الصحوة الكبرى، فإذا قرب الظهر توضأ واستقبل القبلة. ودعا، وصلى ما شاء الله له أن يصلي، فإذا أذن الظهر صلاها بجماعة، وأقبل بعد قراءة أوراده على الدروس، فإذا قرب العصر تهيأ، ثم بعد أن يصليها مع الجماعة يعود إلى الدروس في بيته، وهذا الدرس يحضره بعض الطلبة وكثير من العامة، ويؤخر صلاة العشاء لأجله، فإذا صلاها مع الجماعة ذهب فورا إلى مضجعه من غير أن يكلم بعدها أحدا، فينام وهو ذاكرا لله تعالى، ثم يقوم للتهجد حتى يقرب الفجر، فيأتي الجامع الأموي فيصلي فيه الفجر.

وهكذا كانت حياته دائرة بين ذكر وصلاة ودعاء ومناجاة وصيام وقيام ودروس خاصة وعامة، وشفاعة لدى حاكم، ونصيحة له، وسؤال عن أحوال الناس، وعن أسعار أقواتهم، ومواضع شكاتهم، وترحيب بزائر وطلب الدعاء منه، وزيارة للسجون يتفقد أحوال المسجونين بها ويعظهم، وكذلك القبور، وصلة الأرحام، وعيادة المرضى، وجمع للناس على الله تعالى، وتخويف من عقابه.

داعية وطنية:

وكان «الشيخ بدرالدين الحسني» من دعاة الوطنية والجهاد في سبيل الله والوطن، فقد كان يهيئ نفوس مريديه، ويعدهم للقتال، ويبين لهم فضل المجاهدين بأموالهم وبأنفسهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا

وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وكان يحدثهم عن أن المسلم يقاتل إما للنصر وإما للشهادة، وللشهداء منزلة عالية عند ربهم، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

هذه الرغبة في الجهاد التي كان يزرعها في قلوب وعقول تلاميذه، كانت راسخة مستقرة في وعيه ويقينه، لذلك لم يكتف بواجبه التعليمي في العلوم الشرعية والكونية بل اضطلع بدور رئيسي وهام في إزكاء النفوس وإشعال نار الثورة للجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، فقد رفض مقابلة الجنرال الفرنسي «غورو» عندما وصل إلى دمشق، وحض الناس على عدم دفع الضرائب للفرنسيين أو التعامل معهم، وصار يعلن في مجالسه الخاصة وفي دروسه أن الجهاد ضد الفرنسيين فرض على الناس.

إعداد النفوس للثورة:

وحتي يُعد النفوس للثورة والجهاد، خرج «الشيخ بدرالدين» مع بعض تلاميذه، ومنهم الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب. يجوبون البلاد داعين إلى الجهاد والثورة على ظلم واستبداد الفرنسيين، بدؤوا رحلتهم من دمشق في سنة ١٩٢٤م، إلى دوما وإلى حمص وحماة، وإلى حلب، طافوا في سورية كلها، وكانوا كلما وصلوا إلى بلدة أو قرية، خرج أهلها على بكرة أبيهم لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا، وحمسوا وأثاروا العزة الإسلامية في النفوس، وذكروا بالمجد الغابر، وحثوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام ثورة ١٩٢٥م السورية ضد الفرنسيين، التي امتدت سنتين، وأذهلت ببطولتها العالم كله.

كان يعيش في سعة من دنياه، ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه، وكان اعتماده على الله، لا على المال، فلا يحرص عليه حتى يناله من غير محله، ولا يجزع إذا ذهب بغير عمله، عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم لسانه، إلا أن تكون كلمة لابد منها(*).

أكثر من جبهة:

ظل طوال هذه السنوات يقوم بالواجب الكبير، والجهاد العظيم المزدوج الجبهة. جهاد ضد المستعمر، وجهاد ضد الجهل والظلام والفساد، لا يكف عن تعليم، ولا يغيب عن درس، يحافظ على نظام عمله وترتيب أوقاته.. ومازال في حيوية ونشاط، كان وهو ابن ثمانين سنة ظننته ابن الثلاثين، مازال في حركته الدائبة، وهمته الكبيرة وعمله الشاق، لا يغير منها شيئا طيلة سبعة وثمانين عاما، لم يقطع درسا، ولم يؤجل مجلسا، اللهم إلا ما كان في اليوم السابق لوفاته. رغم نصح الأطباء له بالتوقف عن هذا النشاط قبل ذلك بأمد غير يسير.

ولما أحس الشيخ بدنو أجله، ازدحم طلابه وأحبابه حوله حتى شعر بالاحتضار، فسارعوا بالانصراف ليتركوه يلاقي ربه وحده وهو يناجيه بالذكر والدعاء والشكر. وأسلم الروح إلى بارئها، وكان ذلك بعد الضحى بساعة من صباح يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق الثامن والعشرين من حزيران سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وألف ميلادية. وخرجت سورية بعلمائها، ومعها عدد من علماء البلاد العربية والإسلامية في وداع العالم الكبير.

رحم الله العالم العامل الذي قال عنه صاحب حلية البشر «عبدالرزاق البيطار»: عالم إلا أنه عامل، وفاضل غير أنه كامل، قد اعتصم بحبل السنة والكتاب، وانتظم في سلك المتمسكين بأقوال الصحاب.

(*) الدكتور محمد حسن الحمصي «الدعاة والدعوة الإسلامية المعاصرة، المنطلقة من مساجد دمشق»، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ص٨٠٦.